

معروف الرصافي

1945 - 1875

معروف الرصافي هو شاعر كبير، ملأ الدنيا وشغلها في زمانه. وكان، إلى جانب شهرته كشاعر، أديباً وناقداً وباحثاً في تاريخ الأدب. وكانت له آراؤه وسجلاته مع عدد من كبار الأدباء العرب وفي مقدمتهم طه حسين. لكنه كان، في الوقت عينه، شخصية سياسية مرموقة. وكان صاحب فكر ورأي في شؤون الكون والحياة والمجتمع. وقد يكون هذا الجانب من شخصيته هو الأبرز والأكثر إثارة للجدل. ذلك أن النقاد اختلفوا في تقييم شعره، رغم اعترافهم بأنه كان شاعراً كبيراً. لكن الأساسي في شخصيته هو التعدد في جوانبها التي تشابكت وتناقضت في سيرته وخلقت له المتاعب. وكان الشعر، بالنسبة إليه، وسيلته الأرحب إلى إعلان مواقفه السياسية ومواقفه في كل الشؤون الأخرى التي شغلته، باستثناء كتابه "الشخصية المحمدية" الضخم الذي أعطاه جهداً كبيراً في البحث والتدقيق، وفي استخلاص آرائه من هذين البحث والتدقيق الذين اعتبرهما بجرأة حقاً له لا ينازعه فيه أحد.

يقول الكاتب العراقي نجدة فتحي صفوت في المقدمة التي وضعها لكتاب الرصافي "أفكار وخواطر" وشملت سيرة حياة الشاعر: "إن مكانة الرصافي الأدبية والشهرة الواسعة التي حصل عليها في زمانه، لم تكن بما أدخله على الشعر وأساليبه من تجديد، أو ما ابتدعه من أشكال أدبية لم يسبقه إليها سابق من الأدباء والشعراء. بل أن ميزته الحقيقية تكمن في طبيعة الموضوعات التي تناولها، والجرأة التي عالج بها تلك الموضوعات في بيئة كانت التقاليد - من أدبية واجتماعية وسياسية - محيطة بها من كل جانب". وقد تجسدت هذه

الجرأة عند الرصافي في مواقفه وآرائه وفي أفكاره وفي المبادئ التي اعتنقها. كما تجسدت في اعتماده سلاح النقد للسائد من الأفكار والتقاليد والأنظمة والسياسات.

ولد الرصافي في عام 1875 في بغداد، في عهد السلطان العثماني عبد العزيز. وكان أبوه عريفاً في الجيش العثماني. وهو كردي الأصل من عشيرة الجبارة أو الجبارية في محافظة كركوك. دخل في سلك الدرك الذي كان يتولى المحافظة على الأمن خارج المدن. لذلك كان كثير الأسفار. ولم يكن ابنه معروف يراه إلا لماماً. فعنيت الوالدة برعاية الإبن. ولم تلد سواه. فتعلقت به وتعلق بها.

واظب معروف على الذهاب إلى الكتّاب. فحفظ القرآن وتعلم مبادئ الكتابة. ثم انتقل إلى المرحلة الابتدائية من دراسته. لكنه تركها بعد ثلاث سنوات، وانتسب إلى إحدى المدارس الدينية. ثم التحق بحلقة دراسية كان يقودها الشيخ محمود الألوسي. وتلقى على هذا الشيخ علوم الدين والفقه وعلوم أخرى كاللغة والمنطق. وظل يتابع الدراسة على أستاذه الألوسي على امتداد اثنتي عشرة سنة. ومارس نظم الشعر ابتداءً من تلك المرحلة من شبابه. انتقل بعد ذلك إلى التدريس في المدارس الأولية. وظل يتدرج في مهنة التعليم حتى أصبح مدرساً في المدارس الثانوية. وكان لا يزال يرتدي العمامة البيضاء والجبة ويرسل لحيته. وظل يمارس التدريس في المدارس الثانوية حتى عام 1908، العام الذي أعلن فيه الدستور الثاني للسلطنة العثمانية على يد "جمعية الإتحاد والترقي". وكان الرصافي في تلك

الفترة قد أصبح شاعراً معروفاً في العراق، وفي البلدان العربية. وكان ينشر قصائده في المجلات العربية المعروفة، ومنها مجلات "المقتبس" و"المؤيد" و"المقتطف" و"الرسالة" و"العرفان". وأخذ النقاد يهتمون به كظاهرة جديدة في الشعر السياسي تحديداً. إذ كانت قصائده منذ البداية تتناول قضايا سياسية. وكان من بين قصائده تلك قصيدته التي حيا فيها الحدث السياسي العثماني المتمثل بإعلان الدستور الجديد. ومعروف أن هذا الحدث التاريخي كان قد لقي استقبالا كبيرا في الأوساط السياسية جميعها في السلطنة العثمانية بمكوناتها القومية المختلفة. ورحبت به القوى العربية التي رأت فيه أملاً بموقف جديد يعطي للعرب بعضاً من حقوقهم. ولم يمض وقت قصير حتى أنشأت "جمعية الإتحاد والترقي" جريدة في بغداد باللغتين العربية والتركية أعطيت اسم "بغداد". واختير الرصافي لمنصب رئيس التحرير فيها. وكان قد خلع العمامة والجبّة واللحية وصار مدنياً.

واصل الرصافي عمله الصحافي والأدبي شعراً ونقداً أدبياً وأبحاثاً ومحاضرات. وواصل نشاطه السياسي مستخدماً سلاح النقد للحكومات المتتالية ولسياساتها. وكان من أوائل الذين نادوا بخلع السلطان عبد الحميد. وكان من أوائل من نادوا بالجمهورية. وهو ما عبر عنه في إحدى قصائده التي يقول فيها:

كيف القرار على أمور حكومة

حادث بهن عن الطريق الأمثل

ما لم تقل، وتقول ما لم تفعل      في الملك تفعل من فظائع جورها

خصت برأي مقدس لم يُسأل      أبت السياسة أن تدوم حكومة

هبي، وفي أمر الملوك تأملي      يا أمة رقدت فطال رقادها

كشفت عماية قلب كل مضلل      إن الحكومة وهي جمهورية

لكن نقده للسلطات لم يؤثر على علاقاته ببعض أركانها، لا سيما في "جمعية الإتحاد والترقي"، حتى بعد أن نكثت بوعودها في إعطاء العرب حقوقهم. إذ هي مارست عليهم، بعكس ما وعدت، عملية التتريك المعروفة. الأمر الذي أحدث طلاقاً كاملاً بينها وبين الجمعيات العربية التي كانت تحمل في مواقفها القضية العربية، حتى ولو لم تكن قد بلغت حد المطالبة بالإستقلال عن السلطنة. لكن تلك الحركة العربية سرعان ما اتخذت مع الوقت طابعاً أكثر وضوحاً، تمثل في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس في عام 1913، وأعلن الطلاق شبه الكامل بين العرب وبين العثمانيين. غير أن الرصافي الذي كان على علاقة حميمة مع تلك الحركة العربية المطالبة بالحقوق العربية داخل السلطنة العثمانية، سرعان ما اتخذ موقفاً سلبياً منها بعد مؤتمر باريس. وناهضها واتهمها بالعمالة للمستعمرين الفرنسيين والإنجليز. واتخذ الموقف ذاته من ثورة أمير مكة الشريف حسين. وكان في موقفه ذلك شديد الإلتباس في التناقض بين انتمائه إلى الحركة المطالبة بالإستقلال، وبين بقاءه أسير العلاقة مع السلطة العثمانية. إلا أنه حين قامت ثورة العشرين في العراق ضد

الإنجليز، الذين كانوا قد احتلوا هذا البلد العربي في عام 1917، قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى وانحلال الإمبراطورية العثمانية، لم يتأخر في الإنضمام إليها وصار واحداً من شعرائها. وكان بذلك يمارس موقفه المعلن والدائم ضد الإنجليز. وهو الموقف الذي استمر عليه على امتداد أعوام حياته. واتخذ، استناداً إلى موقفه ذلك، منذ البداية موقفاً معارضاً للملك فيصل الأول، الذي كان قد نصبه الإنجليز ملكاً على العراق في عام 1921.

تنقل الرصافي في حياته السياسية، في المرحلة السابقة على انهيار السلطنة العثمانية، بين بغداد والأستانة. كما تنقل في المناصب السياسية والصحافية. فدخل النيابة. وعمل في صحف عديدة. لكن شعره ظل وسيلته المفضلة لإبداء آرائه ومواقفه من مختلف الشؤون السياسية والإجتماعية والفكرية. وكان ذلك شأنه في الفترة التي أعقبت تأسيس العراق الجديد، بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية وتولي فيصل الملك في العراق في ظل الإحتلال الإنجليزي. دخل مجلس النواب أكثر من مرة. كما تنقل في التدريس وفي العمل الصحفي، من مكان إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى. وتنقل في البلدان العربية بين دمشق وبيروت والقدس. وكانت تسبقه إلى كل تلك الأماكن قصائده التي كانت تحمل ثورته التي توزعت في اتجاهات مختلفة. وظلت تلك القصائد في جميع الأحوال معادية للإنجليز، ومناهضة للملك فيصل، ومطالبة بالتغيير. وقد وصل به الأمر في بعض قصائده، دفاعاً عن الفقراء ونقداً لأهل السلطة، إلى الدعوة لاعتناق البلشفية:

في السائسين فظاظة وتعجرف  
يا قوم خلوا الفاشية إنها  
لا تنتهي إلا بأن تتبلشفوا  
للإنجليز مطامع ببلادكم  
ويقول في قصيدة أخرى:

إنما الحق مذهب الإشتراكية فيما يختص بالأموال

مذهب قد نجا إليه أبو ذر قديماً في غابر الأجيال

وفي البيت الأول "لحن"، أي خلل في الوزن، برز في أبيات أخرى له في أكثر من قصيدة من قصائده. ولا أدري إذا كان ذلك خطأ من الرصافي أم من الذين نقلوا شعره. وهو ما لا أستطيع أن أجيب عنه.

ولأن الرصافي كان ثائراً ومتمرداً فقد كانت سيرته تثير الكثير من الأسئلة حول حقيقة مواقفه، وحقيقة ما كان يريد في حياته. ويتساءل بعض الدارسين لسيرته عما إذا كان قد سعى للوصول إلى منصب وزاري لم يوفق في الحصول عليه، أم أنه كان في الأساس مجرد ثائر ضد أوضاع سياسية واجتماعية وضد تقاليد كانت تشكل بالنسبة إليه مظهراً من مظاهر التخلف الذي لم تشف منه البلدان العربية. لكن هذه التساؤلات تبقى ثانوية في نظري إذا ما نحن قرأنا مجموع شعره، وقرأنا في هذا الشعر عناصر الثورة والتمرد، وإذا ما نحن قرأنا بعض كتاباته التي وصل فيها إلى حد التناقض مع السائد من الأفكار والخرافات

كانت تلتصق بالدين. وقد أثارت تلك الكتابات والقصائد حملة شعواء عليه من قبل بعض رجال الدين الذين اتهموه بالكفر والإلحاد.

وقد اضطر الرصافي إلى استخدام كل الوسائل لإنقاذ نفسه من تلك التهم ومن تلك الحملة الشعواء عليه. وساعده في ذلك عدد من أصدقائه من ذوي النفوذ في العراق. وتشير بعض نماذج من قصائده إلى فلسفته وإلى حيرته وشكوكه وإلى دعوته أبناء أمته للنهوض من كبوتهم وللخروج من تقاليدهم وللذهاب بحرية إلى المستقبل. وهذه بعض نثرات من شعره.

يقول في إحدى قصائده

من أين من أين يا ابتدائي

ثم إلى أين يا انتهائي؟

أمن فناء إلى وجود

ومن وجود إلى فناء؟

أم من وجود له اختفاء

إلى وجود بلا اختفاء؟

خرجت من ظلمة لأخرى

فما أمامي وما ورائي؟

ما زلت من حيرة بأمري

معانق اليأس والرجاء

ويقول في قصيدة أخرى

أحب الفتى أن يستقل بنفسه

فيصبح في أفكاره مطلقاً حراً



فيحشر في الدنيا أسيراً مع

وأكره منه أن يكون مقلداً

### الأسرى

بها تنبت الأفكار من أهلها زهرا

وما هذه الأوطان إلا حدائق

يكون إلى العلياء بالناس منجرا

وما حبها إلا لأجل تحرر

تضاحك من أحرارها أنجماً زهرا

وما حسنها إلا بأن سماءها

فحرية الأفكار غايتها الكبرى

إذا كان في الأوطان للناس غاية

إذا أنتم لم تستقلوا بها فكرا

فأوطانكم لن تستقل سياسة

وواضح من هذه النماذج من شعر الرصافي توفقه إلى الحرية ونقده للتقاليد ودعوته إلى

التحرر وإلى النهوض. وقادته مواقفه السياسية والفكرية والإجتماعية والوطنية إلى أن يصبح

ذائع الصيت مشهوراً في العالم العربي.

ورغم أن علاقة صداقة ربطته بالشاعرين العراقيين جميل صدقي الزهاوي ومحمد مهدي

الجواهري، إلا أنه اختلف معهما في السياسة وفي الشعر وفي الأدب. كما قامت بينه وبين

أمين الريحاني علاقة صداقة بدأت لدى زيارة الأخير إلى بغداد حيث حيّاه بقصيدة. ثم أنه

تعرف إلى أدباء عرب آخرين. وظل إسماً لامعاً في الحياة الأدبية على امتداد حياته. وكان

من أطرف مساجلاته ذلك السجال الذي أقامه مع طه حسين حول أبي العلاء المعري.

فقد عارض في كتاب له يحمل عنوان "على باب سجن أبي العلاء" أفكار وآراء طه حسين

في أبي العلاء التي وردت في كتابه "مع أبي العلاء في سجنه". والسجال متعدد المواضيع والجوانب المتصلة بمواقف أبي العلاء، لا سيم" في ديوانيه "الروميات" و"سقط الزند". ولعل من أبرز ما جاء في اعتراض الرصافي على آراء طه حسين ما يتصل بموضوع التشاؤم في شعر أبي العلاء الذي أرجعه طه حسين إلى اليأس الذي عاش فيه المعري ووضعه في العزلة التي أنتج فيها هذين الديوانين من الشعر. ويرد الرصافي على طه حسين قائلاً بأنه إذا كان التشاؤم تعبيراً عن اليأس، فإن اليأس لا ينتج أفكاراً. في حين أن المعري قد أنتج أفكاراً عظيمة في ديوانيه هذين تجلت فيها فلسفته في الحياة.

على أن للرصافي، إلى جانب شعره وأبحاثه الأدبية التي قدمها في محاضراته وخلال تدريسه الأدب وتاريخه، أبحاث فكرية واجتماعية وخواطر ذات أهمية كبيرة. ومن أهم كتبه كتاب "الشخصية المحمدية" الذي ظل مخطوطاً حتى مطالع الألفية الثالثة. وهو كتاب يدرس فيه الرصافي شخصية النبي العربي كإنسان، من دون أن يتجاوز صفته النبوية، معتمداً في دراسته للنبي على ما جاء في القرآن: " .. وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إليّ". وقد بنى الرصافي على ذلك النص القرآني حقه في أن يقرأ الملامح الخاصة لشخصية النبي كإنسان مثل سائر الناس يتميز عنهم بعبقريته الفذة وبأنه صاحب رسالة دينية نبوية، أوحى له الله بها وأمره بأن يكون رسوله إلى الناس مبشراً بالدين الحنيف.

وأقتطف هنا بعضاً من أقوال الرصافي منتقاة في شكل غير متكافئ من عدة فصول من كتاب "الشخصية المحمدية"، أردت منها أن أقدم للقارئ الطريقة التي قرأ فيها الرصافي شخصية النبي. هذا النص مأخوذ من الفصل الأول من الكتاب "للحقيقة لا للتاريخ" بعنوان فرعي "محمد". يقول الرصافي: "أعظم رجل عرفه التاريخ. أحدث في البشر أعظم انقلاب عام في الدين والسياسة والاجتماع. وقد أوجد هذا الانقلاب بواسطة نهضة عربية المبتدأ عالمية المنتهى. بدلت مجرى الحياة الإنسانية وحولتها إلى ما هو أعلى مما كانت عليه قبلها حتى أن آثارها في قليل من الزمن عمت الشرق والغرب. ولم تزل آثارها باقية إلى يومنا هذا وستبقى إلى ما شاء الله. إن تلك الشخصية العظيمة التي يمثلها شخص محمد بن عبد الله في بني آدم قد اجتمع فيها من عناصر الكمال البشري ما لم يعرف التاريخ اجتماعه في أحد قبله: عزم لا يرده راد، وتفكير عميق الغور بعيد المرمى، وخيال واسع قوي يكاد يقاوم الحقيقة بقوته، وطموح إلى العلى لا يعلو عليه طموح. هذه هي العناصر الأصلية التي تتكوّن منها شخصية محمد، أضف إلى ذلك ما أوتيته من غزارة عقل وثقوب ذكاء، إلا أنه في هذه الناحية لا يفوق إلى المحيط الذي نشأ فيه والعنصر الذي هو منه، أي أن عقليته لا تتجاوز في تفوقها إلا العقلية العربية في زمانه وبيئته. ولئن جاز أن يعلو عليه عال في العقل والذكاء فلا يجوز ولن يجوز أن يفوقه أحد فيما أوتي من صبر وحزم، وهو مع ذلك بشر يتعاوره من أحوال البشر ما يتعاور كل إنسان. وإذا دحضنا ما جاء به الرواة من

الأخبار الملفقة بما يكذبها من العقول ومن آيات القرآن لم نر في حياته ما يخرق العادة ويخالف سنة الله، التي لا تقبل التبدل ولا التحويل، أعني بسنة الله نواميس الطبيعة، بل نرى حياته كلها لم تكن إلا طبق ما تقتضيه سنة الله في خلقه. وبما أنه بشر لا يخلو من معائب، ولا أقول هنا: "كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه"، بل أقول: "جل ما لا عيب فيه وعلا". لأن العبارة الثانية دون الأولى تنص على أن الكمال المطلق هو لله وحده. على أن المعائب البشرية كلها لم تكن معائب لذاتها بل لأمر اقتضتها المصلحة العامة في المجتمع. وإذا كان المرء عاملاً للمصلحة العامة فمعائبه التي تبدو في عمله لا تكون معائب، إذ يجوز أن تقتضي مصلحة العموم أن يعمل عملاً يكون عند الفرد معيباً والفرد لا حكم له في جنب العموم. ثم هي تختلف باختلاف عوائب الناس. فقد يكون الشيء معيباً بالنسبة إلى أحدهم وغير معيب بالنسبة إلى الآخر. وقد قيل حسنات الأبرار سيئات المقربين. ولا ريب أن الأمور التي تؤاخذ بها شخصية محمد لم تكن معائب إلا بالنسبة إلى تلك الشخصية من المقام الأسمى والمرتبة العليا.

ويقول في هذا الفصل أيضاً تحت عنوان "النتيجة": "إننا نريد أن نعرف محمداً كما هو. وقد تقدم أن القرآن أصبح ما بلغنا عنه، فيجب أن نعتمد عليه في معرفة محمد أكثر من غيره. أما كتب الحديث والسير فلا يجوز الإعتماد عليها إلا بعد أن نضعها في غربال

منسوج من العقول ومن القرآن فنغربلها. فما سقط منها تركناه وما بقي في الغربال أخذناه.  
وهذا ما نريد أن نعمله في هذا الكتاب".

ويقول في الفصل ذاته تحت عنوان "ذكاؤه": "... هذا ما أوردناه من شواهد على العقلية  
المحمدية من حيث هي مصدر للحجة. وهنا نورد لك بعض الشواهد عليها أيضاً من حيث  
أنها مصدر للإنتباه وسرعة الفهم. كان محمد شديد الفطنة، شديد الإنتباه لما يجري حوله  
من الأمور. فلا يفوته من الذين حوله همسه ولا ما يبدو على وجوههم من علامات السخط  
والرضى. وكان جلّ نظره الملاحظة. يراقب أصحابه وينظر إلى من حوله بمؤق العين.  
فتراه ينظر وكأنه لا ينظر. وكان شديد الفراسة. إذا نظر إلى وجه أحد يكاد يعرف ما في  
ضميره".

ويقول في فصل بعنوان "محمد قبل النبوة" تحت عنوان فرعي "فكرة النبوة وكيف  
حصلت لمحمد": "قبل كل شيء يجب أن نعلم أن محمداً كان قبل النبوة خارجاً على التقاليد  
الموروثة الكائنة عند قومه لأنه كان، كما قلنا سابقاً، ممن يغلب عقله الفطري على عقله  
المكتسب، (انظر مقالنا العقلية العربية في الجاهلية)، وكل من كان كذلك مفكراً حر التفكير،  
لأن الإنسان لا يمنع من التفكير في الأمور إلا التقاليد الموروثة والعادات المألوفة التي هو  
خاضع لها والتي منها تتكون له عقلية مكتسبة بها يتعقل الأمور حتى يكون بحيث لا يرى

الأمر معقولاً إلا إذا كان موافقاً لتلك التقاليد وتلك العادات، فتكون حينئذ عقليته المكتسبة قد تغلبت على عقله الفطري ومنعته من التفكير في الأمور".

أما كتابه المهم الآخر فهو "خواطر وأفكار" الذي يتبنى فيه آراءً ومواقف وتأملات متنوعة في قضايا مختلفة. منها ما هو ساذج وعفوي ومنها ما هو عميق في الفكر. وبعضها يتصل بأحداث تاريخية. ومن الأحداث التاريخية التي يتوقف عندها واحدة تتعلق بأصول "الأذان" عند المسلمين وبالتطور الذي لحق بالأذان مضموناً وشكلاً وأداءً في صيغة إضافات من هنا ومن هناك بحسب الفرق الإسلامية. ومنها ما يتعلق بمقتل الحسين بن عليّ في كربلاء. إذ هو يروي أصل القضية معتبراً إياها واحدة من الفتن التي أصابت الإسلام في مراحلها المختلفة. لكنه يقول بأن للفرس دوراً في إعادة إحياء عاشوراء بعد أن توقف استنكارها ما يزيد عن ثلاثة قرون. ويتهم بذلك الفرس في إنكاء الفتنة داخل الإسلام. لكن أهم ما في هذه الخواطر والأفكار الفصل الأخير منها الذي يحمل عنوان "الإشترابية في الإسلام". يقول في مطلع هذا الفصل: "لو افترى الإنسان حراً لتجلت له الحقيقة بوجهها الأغر البهيج. أما إذا قيد فكره بأقوال الناس وتقاليدهم فلا يخرج في افتراره من ظلمة إلا إلى أخرى. وقد تكون الحقيقة أمام عينيه ظاهرة واضحة إلا أنه يراها لغشاوة في بصره من تلك التقاليد. فحرية الفكر هي العامل الوحيد الذي ينتشل المرء من هوة الضلال إلى ذروة الحق والهدى. إذا نظر المسلم الحر الفكر في الإسلام رأى فيه أموراً تنطبق تماماً على مبدأ

الإشترابية وتماشيه جنباً إلى جنب. منها أنه جعل للفقراء حقاً في أموال الأغنياء. إذ فرض على هؤلاء أن يخرجوا في كل عام من أموالهم مقداراً معلوماً يدفعونه إلى الفقراء وذلك هو الفرض المسمى بالزكاة. ثم أنه لم يترك ذلك لرحمة الأغنياء وعطفهم بل جعل ولي الأمر وهو رسول الله أو الخليفة من بعده مكلفاً بأخذ هذا المال منهم ورده إلى الفقراء. إذ قال في سورة التوبة ' خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها'.

معروف الرصافي، هذا الشاعر والسياسي والمفكر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في زمانه، والذي أمضى حياته في التنقل في المواقف وفي المعارك وفي الوظائف وفي المهمات، قد وصل في الأعوام الأخيرة من حياته إلى العزلة والإنزواء والفقرة. وكان قد بدأ يمارس المجون إلى أقصى الحدود بعد أن طلق زوجته التركية. وحين غادر الحياة في عام 1945 تذكره الأدباء والشعراء وقادة الرأي والسياسيون. واحتفلوا به وكرموا ذكره. وترك بعد وفاته تراثاً ضخماً من الشعر والفكر والسيرة سيظل ينهل منها كل من كان حريصاً من العرب على الربط الصحيح بين ماضي تاريخنا وبين حاضرنا ومستقبلنا. وخص الرصافي أصدقاءه بوصية متواضعة نثبت فيما يلي نصها: "أراهم يهيجون عليّ العوام باسم الدين، ولا أظنهم يتركونني حتى يعدموني الحياة وليس لي من ألتجئ إليه سوى الله، وكفى بالله حافظاً وحسيباً. وليس لي من الأقارب من أعهد إليهم بوصيتي سوى معارفي من الأصدقاء الأحرار من أهل البلاد. فلذا أكتب هذا إليهم عسى أن يقوموا بتنفيذه ولهم من الله الأجر.

كل ما كتبت من نظم ونثر لم أجعل هدفي منه منفعتي الشخصية، وإنما قصدت به منفعة المجتمع الذي عشت فيه، والقوم الذين أنا منهم، ونشأت بينهم. فلذا لم أوفق إلى شيء في حياتي يسمى بالرفاهية والسعادة في الحياة. لا أملك سوى فراشي الذي أنام فيه، وثيابي التي ألبسها. وكل ما عدا ذلك من الأثاث الحقير الذي في مسكني ليس لي. بل هو مال أهله الذين يساكنوني. كل من اعتدى عليّ في حياتي فهو في حل مني. وإن كان هناك من اعتديت عليه فهو بالخيار إن شاء عفا عني. وإلا قضى بيني وبينه الله الذي هو أحكم الحاكمين. أنا - والله الحمد - مسلم، مؤمن بالله وبرسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائي فيه ولا أداجل. إلا إني خالفت المسلمين فيما أراهم عليه من أمور يرونها من الدين، وليست هي منه إلا بمنزلة القشور من اللباب. ولا يهمني من الدين إلا جوهره الخالص، وغايته المطلوبة التي هي الوصول إلى شيء من السعادة في الحياة الدنيوية الإجتماعية، والحياة الأخروية ما أمكن الوصول إليه من ذلك بترك الشرور وعمل الصالحات. وكل ما عدا ذلك من أمور الدين فهي وسيلة إليه، وواسطة له ليس إلا. بما أن "عبد بن صالح" الذي هو معاوني على العيش في مسكني كنت أنا السبب في زواجه، وقد ولد له بنات صغار، وليس له من أسباب المعيشة والكسب ما يجعله قادراً على إعاشتهن، أرجو من أهل الخير في الدنيا، ومن أصدقائي الكرام الأحرار أن يسعوا في إيجاد شغل له يكسب به ما يقوم بإعاشتهن وإن الله لا يضيع أجر المحسنين. كل ما عندي من الكتب المخطوطة التي



كتبتها أنا تباع لمن يرغب في شرائها على أن يكون له حق الطبع والنشر، ولا يكون لي فيها سوى الإسم. ويدفع المال الحاصل من بيعها إلى بنات "عبد". أدفن في أي مقبرة كانت، على أن يكون قبوري في طرف منها. وأن لا يكون في أرض مظلومة وهي التي لم تحفر قبلاً. إن كانت الحياة نعمة سابغة من الله على عباده، فإن الموت رحمة واسعة منه عليهم. فالموت هو رحمة الله الواسعة التي وسعت كل شيء. كل من عليها فإن، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. المؤمن بالله وحده لا شريك له - معروف الرصافي".

ويبدو الرصافي في هذه الوصية مصراً على بعض مواقفه القديمة، متجاوزاً بعضها، يائساً من الدنيا، محطم الآمال والأحلام. وهو في ذلك إنما يتساوى مع الكثيرين من أمثاله من كبار أعلامنا ممن أعطوا بلادهم المجد في ميادينهم المختلفة، إبداعاً في الفكر وفي الآداب وفي الفنون، وفي النضال السياسي كذلك وغادروا الحياة فقراء منسيين. وتلك، لعمرى واحدة من مصائبنا التي لا تحصى!